فجملة (فاعترفنا بذنوبنا) إنشاء إقرار بالذنوب ولذلك جيء فيه بالفعل الماضي كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإنشاء مثل صيغ العقود نحو : بعت . والمعنى : نعترف بذنوبنا .

وجعلوا هذا الاعتراف ضربا من التوبة توهما منهم أن التوبة تنفع يومئذ فلذلك فرعوا عليه (فهل إلى خروج من سبيل) فالاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف كليا لرفع العذاب وقد تكرر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروج أو التخفيف ولو يوما .

والاستفهام بحرف (هل) مستعمل في الاستعطاف .

وحرف (من) زائد لتوكيد العموم الذي في النكرة ليفيد تطلبهم كل سبيل للخروج وشأن زيادة (من) أن تكون في النفي وما معناه دون الإثبات . وقد عد الاستفهام ب (هل) خاصة من مواقع زيادة " من " لتوكيد العموم كقوله تعالى (وتقول هل من مزيد) وتقدم ذلك عند قوله تعالى (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) في سورة الأعراف وأن وجه اختصاص (هل) بوقوع (من) الزائدة في المستفهم عنه بها أنه كثر استعمال الاستفهام بها في معنى النفي وزيادة (من) حينئذ لتأكيد النفي وتنصيص عموم النفي فخف وقوعها بعد (هل) على ألسن أهل الاستعمال .

وتنكير خروج للنوعية تلطفا في السؤال أي إلى شيء من الخروج قليل أو كثير لأن كل خروج يتنفعون به راحة من العذاب كقولهم (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) .

والسبيل : الطريق واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب وكثر تصرف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود .

وتنكير (سبيل) كتنكير (خروج) أي من وسيلة كيف كانت بحق أو بعفو بتخفيف أو غير ذلك .

قال في الكشاف " وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط " يريد أن في اقتناعهم بخروج ما دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج .

(ذلكم بأنه إذا دعي ا وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم العلي الكبير [12]) عدل عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب وإذا قد كانوا عالمين به قالوا (فاعترفنا بذنوبنا) كانت إعادة التوقيف عليه بعد سؤال الصفح عنه كناية عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه على وجه يشعر بتحقيرهم .

وزيد ذلك تحقيقا بقوله (فالحكم العلي الكبير) .

فالإشارة ب (ذلكم) إلى ما هم فبه من العذاب الذي أنبأ به قوله (ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) وما عقب به من قولهم (فهل إلى خروج من سبيل) .

والباء في (بأنه) للسببية أي بسبب كفرتم إذا دعي الله وحده .

وضمير (بأنه) ضمير الشأن وهو مفسر بما بعده من قوله (إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) فالسبب هو مضمون القصة الذي حاصل سببه : بكفركم بالوحدانية وإيمانكم بالشرك .

و (إذا) مستعملة هنا في الزمن الماضي لأن دعاء الله واقع في الحياة الدنيا وكذلك كفرهم بوحدانية الله فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب .

ومجيء (وإن يشرك به تؤمنوا) بصيغة المضارع في الفعلين مؤول بالماضي بقرينه ما قبله وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرر ذلك منهم في الحياة الدنيا فإن لتكرره أثرا في مضاعفة العذاب لهم .

والدعاء : النداء والتوجه بالخطاب . وكلا المعنيين يستعمل فيه الدعاء ويطلق الدعاء على العبادة كما سيأتي عند قوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) في هذه السورة فالمعنى إذا نودي الله بمسمعكم نداء دالا على أنه إله واحد مثل آيات القرآن الدالة على نداء الله بالوحدانية فالدعاء هنا الإعلان والذكر ولذلك قوبل بقوله (كفرتم وان يشرك به تؤمنوا) والدعاء بهذا المعنى أعم من الدعاء بمعنى سؤال الحاجات ولكنه يشمله أو إذا عبد الله وحده